

14- إثبات صفة السمع والبصر والرؤية

{ وقوله: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ إِِنَّ اللَّهَ سَمِعَ بِصِيرٍ { [المجادلة: 1]. وقوله: } لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي دَبَّرْنَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَتَجُنُّ عُثَيَاءُ { [آل عمران: 181]. وقوله: } أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ { [الزحرف: 80]. } إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى { [طه: 46]. } أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى { [العلق: 14]. } الَّذِي يَرَاكَ جِئْنَا بِقَوْمٍ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ { [الشعراء: 218-220]. } وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ { [التوبة: 105]. } الشرح * قوله: وقوله: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ { . هذه الآيات أوردتها المؤلف -رحمه الله- لإثبات صفتي السمع والبصر وهاتان الصفتان من الصفات الذاتية ثم هدم الآيات صريحة في إثبات السمع؛ لأنها جاءت بصيغة الفعل، وجاءت بالمضارع، وجاءت بالاسم فجاءت بالماضي كقوله تعالى في سورة المجادلة: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا { الآية، وكذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: } لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي دَبَّرْنَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَتَجُنُّ عُثَيَاءُ { ؛ لأن التعبير بسويح في الماضي يدل على أمر قد حصل، فقد سمع الله قول المجادلة، وسمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أعتياء. وبالمضارع كقوله في آية المجادلة: } وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ { والمضارع يؤتى به للحال والاستقبال، والمعنى: إن الله يسمع تخاوركما في الحال، أو يسمع تخاوركما في المستقبل، فهذا صريح في وقوع السمع، ومثله أيضا -بلفظ المضارع- قوله تعالى في سورة طه: } إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى { فقد أثبت بلفظ المضارع، وكذلك قوله في سورة الزحرف: } أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ { . فالتقدير: بلى نسمع سرهم ونجواهم { وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } فعبر بالمضارع ليدل على وقوعه في المستقبل، وفي الحال، ومثله أيضا قوله تعالى في سورة براءة: } وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ { [التوبة: 105]. } هذا في الرؤية في المستقبل، وبالاسم كما في قوله تعالى، في آية المجادلة -في آخرها- { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ { وفي بعض الآيات: } وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا { وفي بعضها: } وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { } وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ { فإثبات ذلك بلفظ الاسم بدل على تحقق الصفة، أي: تحقق وصف الله بمقتضى ذلك الاسم؛ لأن الاسم له ثلاث دلالات، هي: الأولى: دلالة على الذات، وتسمى دلالة المطابقة. الثانية: دلالة على الصفة المشتقة، وتسمى دلالة تضمين. الثالثة: دلالة على بقية الصفات، وتسمى دلالة التزام. فاسم الله تعالى " السميع " يعني: ذو السمع الشامل، لا ينطبق إلا على الذات الربانية، فهو يدل على الذات - يعني: ذات الله- مطابقة؛ لأن اسم الله حقا. ويدل على الصفة تضمنا، وهي صفة السمع، وهي: إثبات أنه يسمع؛ لأن السميع مشتق من السمع، ويدل عليه التعليل بما قبله، كقوله تعالى: } وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ إِِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ { [المجادلة: 1]. وكقوله تعالى: } وَإِنْ عَرَّمُوا الصَّلَاحَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { [البقرة: 227]. يعني: يسمع طلاقهم، ويدل على بقية الصفات بالالتزام؛ لأنه إذا كان سميعا استلزم سمعه أن يكون مدركا لما يسمع، واستلزم أن يكون بصيرا، واستلزم أن يكون قادرا وقاهرا لخلقهم كلهم وهكذا. الآية الأولى: في سورة المجادلة، وهي قوله تعالى: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ تَخَاوُعَكُمْ إِِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ { . هذه الآية نزلت في حوله بنت ثعلبة جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تشتكي إليه زوجها؛ لأنه ظهر منها، يعني: قال لها: أنت علي كظهر أمي، فأخذت تكلمه خفية، وتقول: أشكو إلى الله، وأشتكي إلى الله مما فعل، وتقول عن الصبية الصغار الذين عندهم: " إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن تركتهم عند ضاعوا، فأنزل الله الآيات في أول سورة المجادلة، وجعل له كفارة... إلخ. فقوله: } تَجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا { يعني: في شأن زوجها الذي ظاهر منها، وقال: أنت علي كظهر أمي، } وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ { فراقها لأولادها، لما قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم- { ما أراك إلا قد حرمت عليه { أخرجه البيهقي في السنن (385/7)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (268/6) وعزاه لابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في السنن، وقال البيهقي في السنن: هذا مرسل لكن له شواهد. قلت: وفي سننه أيضا علي بن عاصم، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك. فهي تشكو أمرها إليه. والشاهد هو قوله تعالى: } وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ إِِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ { فأثبت لنفسه سمعا يدرك به المسموعات، وبصرا يدرك به المرئيات، وقد ورد أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله وأنا في ناحية من البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله -عز وجل- { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ } فدل ذلك أن الله يدرك بسمعه الأصوات على اختلافها * الآية الثانية: في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: } لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَتَجُنُّ عُثَيَاءُ { [آل عمران: 181]. هذه الآية نزلت في اليهود، عندما نزل قوله تعالى: } مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ الْقِرْصَةَ حَسَنًا قِيَاسًا لَّهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً { [البقرة: 245]. قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسال عبادة القرص؛ فأقرن الله هذه الآية كما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لمحمد سمع الله قولهم هذا لما تكلموا به، لم يخف عليه منهم خافية وسجاريهم على ذلك. * الآية الثالثة: في سورة الزحرف، وهي قوله تعالى: } أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ { [الزحرف: 80]. هذه الآية نزلت في المشركين، يقول تعالى عنهم: } أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ { [الزحرف: 79]. ثم قال { أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ { أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم ولذلك وكلنا بهم رسلا - يعني: ملائكة- يكتبون حسناتهم وسيئاتهم، فلا يخفى علينا شيء من أمرهم وإن استخفوا وتسترنا. * الآية الرابعة: في سورة طه، وهي قوله تعالى: } إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى { هذا خطاب من الله لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون، وأمرهما أن يقولوا له قولنا لعلنا نتذكر أو نخشى، وتبتهما الله على ذلك، فقال لهما: } لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى { [طه: 46]. فأثبت بأنه معهما يعلمه وحفظه ويسمع كلامهما لفرعون ويرى مكانهما ومكان فرعون، لا يحجب عن ذلك شيء، فهو يعلم السر وأخفى، وهذا دليل على سعة علم الله تعالى، فإن سمعه يتسع لجميع الأصوات، وقد كان دعاء عائشة -رضي الله عنها- الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، وقالت ذلك لما حكى قصة المجادلة، وهي حولة بنت ثعلبة فكونه -سبحانه- وسع سمعه الأصوات، يعني: أنه يسمع القاصي والداني، ولا يخفى عليه شيء من الأصوات، قوبها وضاعفها، سرها وجهرها، في كل مكان، وفي كل زمان، وبأي لغة، فدل ذلك على إثبات صفتي السمع الذي يدرك الله به جميع الأصوات، والبصر الذي يدرك الله به جميع المرئيات فدل ذلك على اتصافه -جل وعلا- بهاتين الصفتين. * الآية الخامسة: في سورة العلق، وهي قوله تعالى: } أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى { [العلق: 14]. وهذه الآية وما بعدها فيها إثبات صفة الرؤية لله تعالى كما ورد في الآية السابقة: } إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى { وقد نزلت هذه الآية في أبي جهل -لعنه الله- عندما منع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الصلاة بالبيت وبخه الله وتوعده، وقال: ألا يعلم هذا الشقي أن الله يرى جميع الأشياء، ولا يخفى عليه خافية من أمره، حتى يمنع نبيه من عبادته والصلاة في البيت، فأثبت الله في هذه الآية صفة الرؤية لجميع الأشياء. * الآية السادسة: من سورة الشعراء، وهي قوله: } الَّذِي يَرَاكَ جِئْنَا بِقَوْمٍ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ { [الشعراء: 218-220]. يخاطب الله نبيه محمدا -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والمعنى أنه يراك في ظلمة الليل حين تقوم للصلاة، ولو كنت في جوف بيتك، لا يخفى عليك شيء من أمرك { وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } يعني: ويرى تقلبك وتقلبك بين الساجدين - يعني: المصلين- من حال إلى حال، فلو كنت في مسجد مثلا، والمسجد مليء بالمصلين، فالله تعالى يرى ما يعلم خافيتك، ويعلم ما في ضميرك: } إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ { يعني: أنه يسمع الكلام والقراءة والذكر ونحو ذلك سرا كانت أو جهرا، وهو عليم بذات الصدور، وما يكنه ويخفيه صدرك. } الَّذِي يَرَاكَ { هو فأثبت تعالى لنفسه البصر الذي يرى به جميع الأشياء. * الآية السابعة: في سورة التوبة، وهي قوله تعالى: } وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ { [التوبة: 105]. } حث الله عباده على العمل الصالح، وأنهم إذا عملوا فإن الله يراهم، ولا يخفى عليه خافية -من أمرهم- فيجازيهم على ذلك أحسن الجزاء، فرؤية الله عامة في كل زمان . وقوله: } ورسوله { يعني: عندما يكشف الله له أو يعلمه بذلك، قوله: } وَالْمُؤْمِنُونَ { يعني: عندما يرونهم يعملون أعمالهم الطاهرة، الشاهد قوله: } فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ { دل ذلك على إثبات الرؤية لله، وأنه سبحانه يرى بصره جميع الأشياء، ولا توارى منه سماء وأرض أرضا. فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى سمعا حقيقيا، يدرك به جميع المسموعات، وبصرا حقيقيا يدرك به جميع المرئيات، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف ولا تمثيل. فإذا عرفت ثبوت هاتين الصفتين قد تقول: ما فائدة اعتقادهما؟ أو: ما الذي يستفيد الشخص إذا اعتقد أن الله سميع بصير، وأن الله يسمع ويرى؟ والجواب عن ذلك أن يقال: إن فائدة هذا الاعتقاد لا بد أن تكون محسوسة. فإذا اعتقد العبد اعتقادا جازما بأن الله يسمع جميع الأصوات، فإن ذلك يوجب له أن يكون حذرا من أن يسمع الله منه كلاما لا يرضيه، كأن يتكلم كلاما محرما؟ من كذب، أو نيمة، أو غيبة، أو نحو ذلك، فيكون دائما خائفا وجلالا يتكلم إلا بالخير، فإن الله تعالى هو الذي خلقه، وهو الذي رباه بنعمه، وهو مالكة، وقد نهاه عن الكذب، ونهاه عن النيمة، ونهاه عن الغيبة، ونهاه عن قول الزور وشهادة الزور، ونهاه عن السخرية بإخوانه المؤمنين، إلى غير ذلك مما نهاه الله عنه، فإنه إذا علم علم اليقين أن الله يسمعه، فإنه سبحانه نفسه، ويقول: كيف أقول ذلك والله يسمعي، كيف أقدم على هذا الكذب، والله يسمعي، كيف أسخر بأخي المسلم والله يسمع ما أقول، فيكون اعتقاده ذلك رادعا وزاجرا له عن الوقوع فيما نهى الله عنه. وهكذا أيضا إذا أيقن، وإذا علم علم اليقين، واعتقد اعتقادا جازما بأن الله يراه من كل حال وعلي كل حال، وفي كل زمان وفي كل مكان، فإن اعتقاده وإيقانه وإيمانه بذلك يردعه ويمنعه ويكفه عن أن يقدم على ما لا يحل له، أو يتأخر عن الواجب. وقد روي أن أحد العلماء أوصى أحد أصحابه، فقال له: إياك أو احذر أن يراك الله حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك، ومعنى قوله: يراك حيث نهاك، يعني: يراك على معصية قد نهاك عنها في مكان فيه صخب ولغو ومضجعة لحدود الله، يراك في مكان تنتهك فيه حرمت الله، ويفترى فيه على الله الكذب، يراك في مكان يسخر فيه بآيات الله ويستنزه بها، يراك في مكان يعصى فيه الله علنا جهارا، ويستخفى فيه بمعصية الله، أو يجاهر بها، ويستهان باقتراها، أو يراك وأنت متلبس بمعصية. ومعنى قوله: أو يفقدك حيث أمرك، يعني: احذر أن تتخلف عن أوامرك، وعن الأمانك التي يطاع فيها الله وتعمل فيها أوامره، فاحذر أن يفقدك الله في المساجد مثلا في أوقات الصلاة، أو في حلقات العلم أو حلقات الذكر، أو يفقدك مع الذاكرين الله كثيرا، ومع الذين يدعون فيها بالعداء والعشي يرددون وجهه، أو يفقدك مع حجاج بيته الحرام، أو يفقدك مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ونحو ذلك من أبواب الخير التي أمر الله بها عباده وجعلها واجبة عليهم. ثم إن هذا يسمى عين المراقبة، إذا علمت أن الله يراك، واستحضرت ذلك عند كل عمل، كانت هذه عين المراقبة. وهناك مرتبة أرفع منها، وهي عين المشاهدة، وهما المذكورتان في قوله -صلى الله عليه وسلم- { الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك } أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب برقم (8) في الإيمان، باب: " بيان الإيمان والإسلام والإحسان... " . قوله: } أن تعبد الله كأنك تراه { هذه عين المشاهدة، وقوله: } فإن لم تكن تراه فإنه يراك { هذه عين المراقبة. فهذه هي ثمرة اعتقاد اتصاف الله تعالى بالسمع الذي يدرك به جميع الأصوات، والبصر الذي يدرك به جميع المرئيات.